القاعدة الحادية عشرة

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة، والتي يتعين إبرازها للناس، وخصوصًا في هذا الزمن الذي راجت فيه سوق السحرة والمشعوذين، إنها القاعدة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩][1]، وفي معنى هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

وهذه القاعدة جاءت ضمن قصة موسى مع سحرة فرعون في سورة طه، بعد أن واعدهم موسى، هو في خندق، وفرعون ومن معه من السحرة في خندق آخر، فلما اجتمعوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٥ - ٦٩].

ووجه اطراد هذه القاعدة: أن المتقرر في علم النحو: أن الفعل إذا كان في سياق

---

(١) وممن نص على أن هذه قاعدة كلية من قواعد القرآن: الإمام محمد بن عبد الوهاب في تفسيره (٣٠١).

النفي فإن ذلك يكسبه صفة العموم، وهكذا الفعل (لا يفلح) فإنه جاء في سياق النفي، فدل ذلك على عمومه، فلن يفلح ساحر أبدًا، مهما احتال، وتأمل كيف عمم ذلك بالأمكنة فقال: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1].

وفي اختيار الفعل ﴿أَتَىٰ﴾ دون قوله -مثلًا-: حيث كان، أو حيث حل سرٌ، ولعل السر في ذلك: من أجل مراعاة كون معظم أولئك السحرة مجلوبون من جهات مصر المختلفة، كما قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨][2].

يقول العلامة الشنقيطي -ملعقًا على نفي الفلاح عن الساحر مطلقًا-:

«وذلك دليل على كفره؛ لأن الفلاح لا ينفى بالكلية نفيًا عامًا إلا عمن لا خير فيه، وهو الكافر، ويدل على ما ذكرنا أمران:

الأول: هو ما جاء من الآيات الدالة على أن الساحر كافر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ يدل على أنه لو كان ساحرًا -وحاشاه من ذلك- لكان كافرًا، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ صريح في كفر معلم السحر.

الأمر الثاني: أنه عرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظة (لا يفلح) يراد بها الكافر، كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٨ - ٦٩]، وقولِه في سورة يونس أيضًا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) ينظر: أضواء البيان (٤/ ٥٥١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ١٤٤).

﴿كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧]»[1].

كم هي الآيات التي تحدثت عن السحر والسحرة في كتاب الله تعالى، وأخبرت عن ضلالهم، وخسارتهم في الدنيا والآخرة! ومع هذا فيتعجب المؤمن كثيرًا؛ من رواج سوق السحر والسحرة في بلاد الإسلام!

وليس العجب من وجود ساحر أو ساحرة؛ فهذا لم يخل منه أفضل الأزمان، وهو الزمن الذي عاش فيه النبي ﷺ فضلًا عن غيره!

وليس العجبُ -أيضًا- من ساحر يسعى لكسب الأموال بأي طريق!

لكن العجب من أمة تقرأ هذا الكتاب العظيم، وتقرأ ما فيه من آيات صريحة واضحة في التحذير من السحر وأهله، وبيان سوء عاقبتهم ومآلهم في الدنيا والآخرة، ومع ذلك يقفون زرافاتٍ ووحدانًا أمام عتبات أولئك السحرة المجرمين!! سواء أمام بيوتهم، أم أمام شاشات قنوات السحر والشعوذة، والتي راجت سوقها منذ فترة من الزمن! يلتمسون منهم التسبب في إيقاع الضر بأحد أو إزالته عن آخر، وكأن هؤلاء لم يقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]!

والمقطوع به أنه لولا تكاثر الناس على هؤلاء السحرة لما راجت سوقهم، وانتشر باطلهم!

إن مرور الإنسان بحالة مرضية صعبة، أو حالة نفسية شديدة، لا يبيح له بحال أن يرد هذه السوق الكاسدة -سوق السحرة- وكيف يرجى الربح من أناس

---

(١) ينظر: أضواء البيان (٤/ ٥٥٢).

حكم عليهم ربهم بالخسران؟! وإن الله تعالى أرحم وأحكم من أن يحرم عليهم إتيان السحرة، ولا ينزل لهم دواء لما ابتلوا به! كما قال النبي ﷺ: «لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز و جل»[1].

وفي البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء»[2].

ولعظيم ضرر السحر، فقد حرمته جميع الشرائع.

إن من أيقن بأن الساحر لا يفلح حيثُ أتى، وأيقن بأنه لا يفلح الساحرون، دفعه هذا إلى أمورٍ، من أهمها:

* البعد عن إتيان هذا الصنف من الناس الذين نفى الله فلاحهم في الدنيا والآخرة -بغية علاج أو نحوه- وكيف يرتجى النفع ممن حكم عليه رب العالمين بأنه خاسر في الدنيا والآخرة!!

* الحذر من التفكير في ممارسة شيء من أنواع السحر، مهما كان المبرر، سواء بقصد العطف، أو الصرف -كما تفعله بعض النساء- وتظن أن قصدَ استمالةِ الزوجِ، أو منعِه من الزواج عليها، ونحو ذلك من الشبه، أن ذلك يبيح لها ما تصنع، فإن هذا كله من تزيين الشيطان وتلبيسه.

* ليعلم كل من يمارس السحر أو تسبب في فعله ذلك أنه على خطر عظيم، وأنه قد باع دينه بثمن بخس، وأن الشياطين هم شيوخه وأساتذته في عمله هذا، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ...﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ

---

(١) مسلم ح (٢٢٠٤) عن جابر رضي الله عنه.

(٢) البخاري ح (٥٦٧٨).

لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

* إن ضعفت النفس لحظة، وزين الشيطان لها شيئًا من هذه الأفعال المنكرة، فليبادر بالتوبة الآن، وليقلع عن هذا العمل الباطل، وليتحلل ممن لحقه الأذى من جراء هذا الفعل، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، وقبل أن يوقف للحساب بين يدي من لا تخفى عليه خافية، الذي يعلم من هو الساحر؟ ومن هو المسحور؟ ومن هو المتسبب في ذلك كله! فيقتص للمظلوم من ظالمه، حين تكون الحسنة أغلى من الدنيا وما عليها!

إن يقين المؤمن بهذه القاعدة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ مما يقوي عبادة التوكل عنده، وعدم الخوف من إرهاب هذا الصنف الحقير من الناس، وهم السحرة، ويتذكر عندها قول الله ﷻ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وفي قراءة: ﴿أليس الله بكافٍ عباده﴾؟ والجواب: بلى والله.

ومما يحسن تأمله والتفكرُ فيه: أن هؤلاء السحرة رغم ما يملكون من الأموال، وما يعيشونه من سكرة التفات الناس إليهم، إلا أنهم من أتعس الناس حياةً، وأخبثهم نفوسًا، ولا عجب! فمن سلّم قياده للشياطين، وكفر برب العالمين، كيف يسعد أم كيف يفلح؟!

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة الثانية عشرة

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة، التي تدل على عظمة هذا الدين، وسموِّه، وعلو مبادئه.

إن هذه الآية العظيمة جاءت في سورة الحجرات، وإن شئت فسمها: جامعة الآداب، فبعد أن ذكر الله تعالى جملةً من الآداب العظيمة، والخلال الكريمة، ونهى عن جملة من الأخلاق الرذيلة، والطباع السيئة، قال الله بعدها -**مقررًا الأصل الجامع** الذي تنطلق منه الأخلاق الحسنة، وتضعف معه أو تتلاشى الأخلاق السيئة، وأنه معيار التفاضل والكرامة عند الله-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، إنها لآية عظيمة، تبرز ميزان العدل الذي لم تظهر تفاصيله كما ظهرت في هذا الدين.

لن يتبين لك موقع هذه الآية الكريمة إلا إذا استعرضتَ في ذهنك شيئًا من الموازين التي كان يتعامل بها عرب الجاهلية في نظرتهم لغيرهم من غير قبائلهم، سواءٌ كانوا من قبائل أخرى أقل منها درجة في النسب، أو في نظرتهم للأعاجم، أو في تعاملهم مع العبيد والموالي!

وإليك هذا الموقف الذي وقع في حياة النبي ﷺ وحدّث به الصحابي صادق اللهجة: أبو ذر رضي الله عنه: روى الشيخان من حديث المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر بالربذة، وعليه بُردٌ وعلى غلامه مثله، فقلنا يا أبا ذر: لو جمعتَ بينهما كانت حلة، فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية فعيَّرتُه بأمِّه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية»! قلت: يا رسول الله، من سب الرجالَ سبوا أباه وأمه، قال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»![1] فهذا أبو ذر مع صدق إيمانه، وسابقته في الإسلام، لامَه النبي ﷺ، وعاتبه لما خالف هذه القاعدة القرآنية العظيمة، وعيّر الرجل بمنطق أهل الجاهلية!

وليس هذا الموقف الوحيد الذي ربّى فيه النبي ﷺ على الاهتداء بهدي هذه القاعدة، بل كررها بعدة أساليب بيانية وعملية، ولعلي أكتفي بهذين الموقفين الذَين لا يمكن أن تنساهما العرب ولا قريش أبد الدهر:

أما الموقف الأول:

فهو يوم فتح مكة، حين أمر النبي ﷺ بلالًا أن يصعد فوق الكعبة ليرفع الأذان، في مشهد ما ظنّ بعض مُسْلِمةِ الفتح أن يعيش ليرى هذا العبد الحبشي يقف كهذا الموقف! ولكنه الإسلام، والهدي النبوي الذي يربي بالفعل والقول.

وفي ذات اليوم -فتحِ مكة- يدخل النبي ﷺ الكعبةَ ويصلي فيها، ولك أن تتفكر من هي الشخصيات المتوقعة التي حظيت بشرف مرافقته في دخوله هذا، والذي أغلق

---

(١) البخاري ح (٥٧٠٣)، ومسلم ح (١٦٦١) واللفظ له.

عليه الباب بعد دخوله، ومن معه؟! **لعله** أبو بكر وعمر رضي الله عنهما؟ كلا، **إذن**: لعله صهره وزوج ابنتيه ذي النورين: عثمان، وابن عمه علي رضي الله عنه؟ كلا، **إذن**: لعله دخل بعض مُسلمة الفتح من أكابر قريش؟ كلا، بل لم يدخل معه سوى: أسامة بن زيد -مولاه ابن مولاه- وبلال الحبشي، وعثمان بن طلحة المسئول عن مفتاح الكعبة![1].

الله أكبر! أي برهان عملي على إذابة المعايير الجاهلية أكبر من هذا؟ مع أن في الحضور من هو أفضل من بلال وأسامة -كالخلفاء الأربعة، وبقية العشرة المبشرين-!

وأما الموقف الثاني:

فإنه وقع في أعظم مشهد عرفته الدنيا في ذلك الوقت... إنه مشهد حجة الوداع، ففي بعض مشاهد تلك الحجة، وبينما الناس مستعدون للنفير من عرفة، وإذا بالأبصار ترمق الدابة التي كان النبي ﷺ يركبها، ويتساءلون: من الذي سيحظى بشرف الارتداف مع النبي ﷺ؟ فلم يرعهم إلا وأسامة -ذلك الغلام الأسود: مولاه وابن مولاه- يركب خلف النبي ﷺ والناس ينظرون!

فعل هذا النبي ﷺ وهو الذي خطب في ذلك اليوم خطبته العظيمة التي قرر فيها أصول التوحيد والإسلام، وهدم فيها أصول الشرك والجاهلية، وقال كلمته المشهورة: «إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوع».

هذان الموقفان قطرة من بحر سيرته العطرة ﷺ!

أما سيرة أصحابه رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان فالمواقف فيها كثيرة وعظيمة، أكتفي منها بهذا الموقف الذي يدل على نبلهم وفضلهم، وشرف أخلاقهم حقًا، الذي جعلهم أهلًا لأن يكونوا خير من يمثل عالمية الإسلام وعالمية الرسالة:

---

(١) والحديث في الصحيحين من حديث ابن عمر: البخاري ح (٢٨٢٦)، ومسلم ح (١٣٢٩).

كان علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ -المعروف بـ: زين العابدين، وهو من سكان مدينة النبي ﷺ- إذا دخل المسجد، يتخطى حِلَق قومه من قريش، حتى يأتي حلقة زيد بن أسلم -وهو مولى لكنه من علماء المدينة الكبار في زمانه- فيجلس عنده، فكأن بعض الناس لامه: كيف تجلس -وأنت الرجل القرشي وحفيد النبي ﷺ- عند رجل من الموالي؟ فقال كلمة ملؤها العقل: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه[1].

إن من عظمة هذا الدين أنه لم يربط مكانة الإنسان ومنزلته عند الله بشيء لا قدرة عليه به، فالإنسان لا يختار أن يكون شريف النسب، وإلا لتمنى الكل أن يتصل بالسلالة النبوية! ولم يربطه بطول ولا قِصَر، ولا وسامة ولا دمامة[2]، ولا غير ذلك من المعايير التي ليست في مقدور البشر، بل ربطه بمعيار هو في مقدور الإنسان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليس في كتاب الله آية واحدةٌ يَمدح فيها أحدًا بنسبه، ولا يَذُمُّ أحدًا بنسبه، وإنما يمدحُ الإيمانَ والتقوى، ويذمَ الكفرَ والفسوقَ والعصيان»[3].

ومما يشهد لما قاله شيخ الإسلام: أن الله تعالى أنزل سورة كاملة في ذم أبي لهبٍ لكفره وعداوته للنبي ﷺ، ونهى اللهُ نبيّه ﷺ أن يطرد المؤمنين من ضَعَفة أصحابه، وإن كان القصدُ من ذلك: الرغبة في كسب قلوب أكابر قريش، فقال سبحانه: ﴿وَلَا

---

(١) ينظر: حلية الأولياء (٣/ ١٣٨).

(٢) يقال لقبيح الخِلقة: دميم (بالدال)، وهو: من قبح منظره وصغر وجهه؛ وكأنه مأخوذ من «الدِّمَّةِ» بالكسر وهي القملة أو النملة الصغيرة، وأما الذميم بالذال فهو قبيح الأخلاق، لهذا يقال: دميم الخلق ذميم الخُلُق. انظر: المصباح المنير (١/ ١٠٥)، أساس البلاغة: (١/ ٢٧٤).

(٣) دقائق التفسير: (٢/ ٢٣).

تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال له في الآية الأخرى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

إن مما يؤسف عليه -في واقعنا المعاصر- وجود أمثلة كثيرة مخالفة لهذه القاعدة الشريفة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ تمثلت بصور من عودة العصبية الجاهلية للقبيلة، والتي لم تتوقف عند حد التعارف بين أفراد القبيلة الواحدة فحسب، ولم تتوقف عند التمادح المباح، بل تجاوز ذلك إلى الغلو في المدح، والموالاة المفرطة للقبيلة، بل والتلويح تارة بنبز القبائل الأخرى، والتي ذوبانِ المعايير الشرعية عند البعض بسبب هذه الأساليب التي كرسها وعزز من حضورها المسابقات الشعرية التي تبنتها بعض القنوات الفضائية، والتي ترتب عليها محاذير شرعية أخرى ليس هذا موضع ذكرها، وإنما الغرض الإشارة إلى مخالفتها إلى ما دلت عليه هذه القاعدة القرآنية الكريمة، فليتق الله من يسمع ويقرأ قول ربه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ من التفاخر المذموم، وليعلم المؤمن أن من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه.

نسأل الله تعالى أن يعيذنا من أخلاق أهل الجاهلية، وأن يرزقنا التأسي برسوله ﷺ في جميع أمورنا.

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة الثالثة عشر

﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية، تُوقِفُ العبدَ على شيءٍ من عظمة الله تعالى في خلقه وحِكمته في شرعه، وتُوقف العبد على قصوره في علمه.

وهذه القاعدة جاءت في سياق آيات الفرائض في صدر سورة النساء، والمعنى: «﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ يعني: الذين يرثونكم من الآباء والأبناء ﴿لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾ أي: لا تعلمون أنهم أنفع لكم في الدين والدنيا، فمنكم من يظن أن الأب أنفع له، فيكون الابن أنفع له، ومنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له، وأنا العالم بمن هو أنفع لكم، وقد دبَّرت أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه»[1].

«ولو رد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم لحصل من الضرر ما الله به عليم؛ لنقص العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن، في كل زمان ومكان»[2].

لقد كان أهل الجاهلية يقسمون الميراث بموازين غير منضبطة، فتارة يراعون حاجة الأبوين، وتارة حاجة الأبناء، وتارة يتوسطون، فجاء الشرع المطهر ليلغي تلك الاجتهادات، فتولى الله ﷻ قسمة المواريث بنفسه، ثم بيّن سبحانه في خاتمة هذه الآية

---

(١) تفسير البغوي: (٢/ ١٧٨).

(٢) تفسير السعدي: (ص١٦٦).

الكريمة معنيين عظيمين يعزب عنهما علم البشر مهما بلغ في سعته، فقال ﷻ في خاتمتها:

١- ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]، وهي القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها.

٢- ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١] فهذه فرائض يجب تنفيذها، وعدم الافتيات عليها بتحريف أو تقصير، وعلل هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ ليزداد يقين المؤمن أن هذه القسمة صادرة عن علم تام، وحكمة بالغة، لا يمكن أن يلحقها نقص أو جور.

من تطبيقات هذه القاعدة:

ولنحاول أن نطبق هذه القاعدة على واقعنا؛ لعلنا نستفيد منها في تصحيح بعض ما يقع منا من أخطاء في بعض تصوراتنا ومواقفنا الاجتماعية، فمن ذلك:

١- أن بعض الآباء قد تكون خَلْفته[1] من الذرية بنات فقط؛ فيضيق لذلك صدره، ويغتم لهذا الابتلاء، فتأتي هذه القاعدة لتسكب في قلبه اليقين والرضا، وكم من بنتٍ كانت أنفع لوالديها من عددٍ من الأبناء! والواقع شاهدٌ بذلك.

أعرف رجلًا لما كبرت سِنه، كان أولاده بعيدون عنه في طلب الرزق، فلم يجد هذا الوالد - الذي خارت قواه، وضعفت بُنيته - أكثر حنوًا ورعاية من ابنته الوحيدة التي قامت بحقه خير قيام من جهة النفقة، والرعاية الصحية، وصدق الله: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالأمر أعظم، قال ابن عباس رضي الله عنه: أطوعكم لله ﷻ من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة، والله تعالى يُشَفِّع المؤمنين بعضهم

---

(١) الصحاح في اللغة (١/ ١٨٣): «الخَلْفُ والخَلَفُ: ما جاء من بَعْدُ. يقال: هو خَلْفُ سَوءٍ من أبيه، وخَلَفُ صدقٍ من أبيه».

في بعض[1]، فإن كان الوالد أرفع درجة في الجنة رُفع إليه ولده، وإن كان الولد أرفع درجة رُفع إليه والده لتقر بذلك أعينهم.

ومن المؤسف أن نسمع ونقرأ عن أناسٍ رزقوا عددًا من البنات، يتذمرون بل قد يهددون زوجاتهم إن هُنّ ولدنَ لهم إناثًا! وكأن الأمر بأيديهن، وهذا من الجهل -في الحقيقة- إذ كيف يلام إنسان على أمر لا طاقة له به؟

ويا ليت من يقعون في هذا الأسلوب يتأملون في أمور منها:

١) هذه القاعدة القرآنية: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

٢) قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩ - ٥٠].

قال ابن القيم -معلقًا على هذه الآية-: «وكفى بالعبد -تعرضًا لمقته- أن يتسخط ما وهبه»[2].

---

(١) تفسير الطبري: (٧/ ٤٩) ط: الرسالة.

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود: ص (٣٢)، ولكلامه تتمة يحسن ذكرها، وهي قوله: «وبدأ سبحانه بذكر الإناث: فقيل جبرا لهن؛ لأجل استثقال الوالدين لمكانهن، وقيل - وهو أحسن -: إنما قدمهن لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالبًا، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء؛ فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان، **وعندي وجه آخر**: وهو أنه سبحانه قدَّم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات؛ حتى كانوا يئدوهن، أي: هذا النوع المؤخر عندكم مُقَدّمٌ عندي في الذكر، وتأمل كيف نكّر سبحانه الإناث، وعرّف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنويهٌ كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين، الذين لا يخفون عليكم، ثم لما ذكر الصنفين معًا قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك» انتهى.

٣) ومما يحسن بمن ابتلي بالبنات أن يتذكره: الأحاديث الواردة في فضل من عال البنات ورباهن حتى يبلغن.

ومما يُذكر به المتضجر من الابتلاء بالبنات، أن يقال له:

٤) هب أنك ضجرت، وتذمرت، فهل هذا سينجب لك ذكورًا؟ صحيح أن أغلب الناس جُبِلَ على حب الذكور، لكن المؤمن ينظر إلى هذا الابتلاء بمنظار آخر، وهو: عبودية الصبر، وعبودية الرضا عن الله، بل قد ينتقل بعض الموفقين إلى مرتبة الشكر؛ لعلمه بأن خيرة الله خير من خيرته لنفسه، وأن الله قد يكون صرف عنه شرًا كثيرًا حين حرمه من الذكور أليس الله تعالى قد سلّط الخضر على ذلك الغلام فقتله، ثم علل ذلك بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾؟! [الكهف: ٨٠ - ٨١].

ومما يحسن ذكره في هذا المقام: أن الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهو ممن ابتلي بالبنات ولم يرزق الذكور- كتب مقالًا، أكاد أجزم لو قرأه الذين ابتلوا بالبنات لم يتمنوا إلا ما هم فيه!

وكما أن الآية فيها سلوة لمن ابتلوا بالبنات؛ ففيها سلوة لأولئك الذين ابتلوا بأولاد معاقين، سواء كانت إعاقتهم سمعيةً أو بصريةً أو عقليةً أو بدنية، فيقال لهم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ويقال لهم أيضًا: والله إنكم لا تدرون أي أولادكم أقرب لكم نفعًا! فقد يكون هذا المعاق أقرب لكم نفعًا في الدنيا قبل الآخرة!

أما في الدنيا: فكم فتحت هذه الابتلاءات لوالِدَي هؤلاء المعاقين من لذة التعلق بالله، ومناجاته، ورجائه الفرج!

وكم ربّت هذه الابتلاءات في نفوس والِدَي المعاقين من معاني الصبر والاحتمال

ما لم تكن تحصل لهم لولا هذه الابتلاءات! وكم... وكم...!!

وأما في الآخرة: فلعل أمثال هذه الابتلاءات بهؤلاء المعاقين تكون سببًا في رفعة درجاتهم عند الله تعالى، رفعةً قد لا تبلغها أعمالهم!

ولئن كانت الآية واضحة المعنى في موضوع الابتلاء بالبنات، أو بأبناء فيهم عاهات أو إعاقات، فإنه يمكن أن يقاس عليها أمور أخرى، مثل: الأعمال الصالحة، والمؤلفات، والمقالات، والكلمات، بل والعبادات، فلا يدري الإنسان أي تلك الأعمال، والمؤلفات، والعبادات أكثر نفعًا له في الآخرة.

تأمل في سؤال النبي ﷺ لبلال رضي الله عنه -حينما سمع ﷺ خشْف[1] نعليه في الجنة -: «أخبرني بأرجى عمل عملته في الإسلام»؟ فقال بلال: إني لم أتوضأ ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الوضوء ركعتين![2].

تأمل كيف أنه لم يذكر بلالٌ جهاده مع الرسول، ولا التزامه بالأذان!

وهذا كله يدعو العبد لأن يكثر من أبواب الخير؛ فالإنسان لا يدري أي أعماله التي قد تكون سببًا في نيل رضوان الله والجنة، ولرُب عملٍ كبير لكن داخَلَه ما داخَلَه من حظوظ النفس؛ فلم ينتفع به صاحبه، ولرُب عمل قليل عَظُمت فيه النية، وصدق صاحبها مع الله فأثابه ثوابًا لا يخطر على باله، وفي قصة المرأة البغي التي سقت كلبًا أكبر شاهد على ذلك.

(١) الخَشْفة: الصوتُ والحَركةُ أو الحِسُّ الخَفِيُّ.
(٢) البخاري ح (٣٤٧٦)، ومسلم ح (٢٤٥٨).

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة الرابعة عشر

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة، التي تجلي معنى عظيمًا ومهمًا في باب التسليم والانقياد لأوامر الله ورسوله، والانقياد لحكم الشريعة.

وهذه الآية الكريمة جاءت في سورة القصص، في سياق الحجاج مع المشركين، وبيان تنوع أساليبهم في العناد لرد الشريعة، ورميهم للنبي ﷺ بالعظائم، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٨ - ٥٠].

والشاهد الذي نحن بصدد الحديث عنه، هو قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

وقد بين الله تعالى هذه القاعدة في موضع آخر، فقال ﷻ: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1].

---

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن (١٢٩) لابن القيم.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ موضحًا هذه القاعدة: «فما هو إلا الهوى أو الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤]، فجعل النطق نوعين: نطقًا عن الوحي، ونطقًا عن الهوى»[(١)]، «فما لم يقله سبحانه ولا هدى إليه فليس من الحق، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾، فقسم الأمور إلى قسمين لا ثالث لهما: اتباع لما دعا إليه الرسول واتباع الهوى»[(٢)].

«فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة، وعَدَلَ عنها إلى خلافها؛ فقد اتبع هواه»[(٣)].

إن الحاجة إلى التذكير بهذه القاعدة القرآنية العظيمة من الأهمية بمكان، خصوصًا في هذا العصر الذي كثرت فيه الأهواء، وتنوعت فيه المشارب في التعامل مع النصوص الشرعية بدعاوى كثيرة: فهذا ينصر بدعته، وهذا يروج لمنهجه في تناول النصوص، وثالث يتتبع الرخص التي توافق مراد نفسه، لا مراد الله ورسوله!

لقد أتى على الناس زمانٌ لا يحتاج الشخص ليمتثل الأمر أو يترك النهي إلا أن يقال له: قال الله، قال رسوله، قال الصحابة، فيتمثل وينصاع، ويندر أن تجد من يناقش مناقشة المتملص من الحكم الشرعي، أما اليوم - وقد انفتحت على الناس أبواب كثيرة يتلقون منها المعلومات - فقد سمعوا أقوالًا متنوعة في المسائل الفقهية، وليست هذه هي المشكلة - فالخلاف قديمٌ جدًا، ولا يمكن إلغاء أمر قدره الله عَزَّوَجَلَّ - **إلا أن المشكلة، بل المصيبة**: أن بعض الناس وجد في بعض تلك الأقوال -التي قد تكون شاذةً في المقياس الفقهي- فرصةً للأخذ بها؛ بحجة أنه قد وجد في هذه المسألة

---

(١) الصواعق المرسلة: (٣/ ١٠٥٢).

(٢) إعلام الموقعين: (١/ ٢٩٨).

(٣) الصواعق المرسلة: (٤/ ١٥٢٦).

قولًا يقول بالإباحة! ضاربًا عُرض الحائط بالقول الآخر الذي يكاد يكون إجماعًا أو شبه إجماع من السلف الصالح على تحريم هذا الفعل أو ذاك القول!

هذا فضلًا عن تلك المسائل التي تبين فيها خطأ قائلها من أهل العلم؛ بسبب خفاء النص عليه، أو لغير ذلك من الأسباب المعروفة التي لأجلها يختلف العلماء[1]، ولئن كان ذلك الإمام معذورًا مأجورًا - لخفاء النص عليه أو لغير ذلك من الأسباب - فما عُذْرُ من بلغه النص عن الله أو عن رسوله؟! ثم بعد ذلك يدّعي أنه يسوغ له الأخذ بذلك القول لأجل أنه قد قيل به! مرددًا مقولةً كثر تكرارها على ألسنة هذا الصنف من الناس: ما دام أنني لم أخالف إجماعًا قطعيًا، ولا نصًا صحيحًا صريحًا، فلا حرج عليّ!! ناسيًا أو متناسيًا قواعد الاستدلال التي قررها الأئمة رحمهم الله.

أليس هؤلاء لهم نصيب من هذه القاعدة: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾؟!

وهنا يَحْسُنُ أن يُذَكّرُ هذا الصنف من الناس بقول الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، وهي قاعدة قرآنية محكمة، سبق شرحها.

كما ينبغي أن يُذَكّروا بالقاعدة التي جاءت في الحديث المشهور -والذي قواه بعض أهل العلم[2]-: «**البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر**»[3].

وهذا المعنى - الذي دلّ عليه الحديث - كما نبّه على ذلك العلماء: إنما يجده من

---

(١) والتي حررها شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته القيمة: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

(٢) قال ابن رجب: «وقد روي هذا الحديث عن النبي ﷺ من وجوه متعددة، بعض طرقه جيدة»، ينظر: (جامع العلوم والحكم - شرح الحديث ٢٧).

(٣) وقد أشرت لشيء من معناه في آخر حديثي عن القاعدة النبوية الرابعة عشر (البر حسن الخلق)، أعان الله على إتمام تلك القواعد وطبعها.

بقي في قلبه بقية من نورلم تطمسها ظلمة الشهوات والشبهات! أما من هام في أودية الفسق والفجور؛ فإن قلبه لا يفتيه إلا بما تهواه نفسه!

وما أجمل ما حكاه ابن الجوزي عن نفسه، وهو يصف حالًا مرّت به، تُشبه ما نحن بصدد الحديث عنه -من أحوال بعض المترخصين اتباعًا لأهوائهم- يقول: «ترخصت في شيء يجوز في بعض المذاهب، فوجدت في قلبي قسوة عظيمة، وتخايل لي نوع طرد عن الباب وبُعْدٌ، وظلمة تكاثفت! **فقالت نفسي**: ما هذا؟ أليس ما خرجتَ عن إجماع الفقهاء؟!

فقلت لها: يا نفسَ السوء! إنكِ تأولت ما لا تعتقدين، فلو استُفْتِيْتِ لم تفتِ بما فعلتِ، **والثاني**: أنه ينبغي لكِ يا نفسُ الفرح بما وجدت من الظلمة عقيب ذلك؛ لأنه لولا نورٌ في قلبك ما أثر هذا عندك!»[1].

لقد جرى لي مرةً حوار عارض مع بعض هذه الفئة، التي أخذت تخوض عمليًا في جملةٍ من المسائل المخالفة لما عليه جماهير العلماء، فقلتُ له: يا هذا! دعنا من البحث الفقهي المحض، وأخبرني عن قلبك: كيف تجده وأنت تفعل ما تفعل؟!

فأقسم لي بالله: أنه غير مرتاح! وإنما يخادع نفسه بأن الشيخ الفلاني يفتي بهذا، وهو في قرارة نفسه غير مطمئن لتلك الفتوى! فقلتُ له: يا هذا، إن العالِم الذي قال بهذه المسألة معذور؛ لأن هذا هو مبلغ علمه، ولكن انج بنفسك، فإن صنيعك هذا هو الذي قال العلماء: إنه تتبع الرخص، وذموا فاعله، بل جعلوا هذا الفعل نوعًا من النفاق واتباع الهوى، ولذا قال جمع من السلف: من تتبع الرخص فقد تزندق!

ومن تأمل كلمة الهوى في القرآن الكريم، لم يجدها ذُكِرت إلا في موطن الذم! ولهذا حذر الله نبيًا من خيرة أنبيائه من هذا الداء القلبي الخطير فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا

---

(١) صيد الخاطر: (١٦٢) بتصرف.

﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]! فمن يأمن على نفسه من الهوى بعد ذلك؟

ولو أن رجلًا أخذ برخص الفقهاء من عدة مذاهب في مسائل متنوعة، لاجتمع فيه شرٌّ عظيم، ولأصبح دينه مرقعًا ورقيقًا!

وليتذكر المؤمن جيدًا -وهو يسلك مسلك تتبع الرخص- أنه إنما يفعل ما يفعل، ويترك ما يترك ديانةً لله، وقيامًا بواجب العبودية لهذا الرب العظيم، فكيف يرضى العبد أن يتعامل مع ربه بدين **شعاره الهوى**؟!

وقبل أن نختم الحديث عن هذه القاعدة العظيمة، يجب أن نتنبه لأمرين:

الأول: الحذر من تنزيل هذه القاعدة على المسائل الشرعية التي الخلاف فيها معتبر ومعروف عند أهل العلم.

الثاني: أن المقصود بالذم هنا، هو من اتبع هواه في الاستفتاء، بحيث يتنقل بين المفتين، فإن وافقت الفتيا ما في نفسه طبقها، وإلا بحث عن آخر حتى يجد من يفتيه، وهذا هو اتباع الهوى بعينه، نعوذ بالله من اتباع الهوى، ونسأله ﷻ أن يجعل اتباع الحق رائدنا وغايتنا.

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة الخامسة عشر

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة، التي تبعث الأمل في نفوس أهل الإيمان، وتملأ قلوبهم ثقةً ويقينًا.

وهذه القاعدة القرآنية جاءت مرةً على لسان موسى عليه الصلاة والسلام وهو يبشر قومه الذين آمنوا به؛ بحسن العاقبة لهم في الدنيا قبل الآخرة، والتمكين في الأرض إن هم لازموا التقوى.

وجاءت هذه القاعدة بلفظ مقارب، في خطاب الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في خواتيم سورة طه: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وجاءت هذه القاعدة -أيضًا- بعد انتهاء قصة قارون، في خواتيم سورة القصص، قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

ومن المعلوم أن العاقبة هنا لا تنحصر في الآخرة التي ضمن الله النجاة فيها للمتقين، كما في قوله ﷻ: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، بل هي عامة في الدنيا

والآخرة، ولكن قبل أن نسأل: أين هذه القاعدة من واقعنا؟ فلنسأل: أين تحقيق التقوى على الوجه الصحيح؟! وإلا فوعد الله لا يتخلف!

إن أدنى تأمل لمجيء هذه الآيات -مع تنوع سياقاتها- ليوضح بجلاء اطراد هذه القاعدة، فقد أخبر بها ربنا جل وعلا في قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وبعد قصة قارون قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وبشر بها موسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام.

«وحقيقة العاقبة: أنها كل ما يعقب أمرًا، ويقع في آخره من خير وشر، إلا أنها غلب استعمالها في أمور الخير، فالمعنى: أن التقوى تجيء في نهايتها عواقب خير.

واللام - في قوله: ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾، و﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للمِلك، تحقيقًا لإرادة الخير من العاقبة؛ لأن شأن لام الملك أن تدل على نوال الأمر المرغوب، وإنما يطرد ذلك في عاقبة خير الآخرة، وقد تكون العاقبة في خير الدنيا أيضًا للتقوى.

وجاءت هذه الجملة بهذا الأسلوب لتؤكد معنى العموم، أي: **لا تكون العاقبة إلا للتقوى**، فهذه الجملة أرسلت مجرى المثل»[1].

ما أحوجنا ونحن نشاهد ما نشاهد -إنْ على المستوى الفردي أو الجماعي- أن نتأمل هذه القاعدة!

ولنبدأ بالإشارة إلى المستوى الجماعي:

فإن أمة الإسلام تمر منذ قرون بحالة من الضعف والتفرق وتسلط الأعداء على كثير من أبنائها، وهذه حالٌ تجعل بعض الناس من المنتسبين للإسلام قد يبحث عن موطئ قدم خارج دائرة الإسلام؛ فيذهب غربًا أو شرقًا؛ بحثًا عن مبادئ أخرى، ومذاهب مختلفة، لا تَمُت إلى الإسلام بصلة، بسبب شعوره البائس بهزيمة داخلية!

---

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ١٩٣) بتصرف يسير.

ولما تعانيه الأمة الإسلامية من تفرق وتشرذم! وفي الوقت ذاته: انبهاره بالتقدم المادي، وما يوجد في تلك البلاد من محاسن تتعلق بحقوق الإنسان، وغيرها من المجالات.

والمؤلم في أمثال هؤلاء: أنهم لم يروا من حضارة الشرق أو الغرب إلا الجانب الإيجابي والحسن، وعميت أبصارهم، أو تعاموا عن الجوانب المظلمة -وما أكثرها-! هذه الحضارة التي اعتنت بالجسد، وأهملت الروح، وعمرت الدنيا وخربت الآخرة، وسخّرت ما تملكه من أسباب مادية في التسلط على الشعوب المستضعفة، وفرض ثقافتها، وأجندتها على من تشاء!

وعلى سبيل المثال: فإن نظام الثورة الفرنسية الذي قرر مبادئ حقوق الإنسان والمساواة بين البشر -كما يزعم واضعوه- لم يمنعه من إبادة ثلث سكان جزيرة هاييتي؛ لأنهم تمردوا على العبودية! كما أن القائد الفرنسي المشهور نابليون -الذي أنجبته الثورة الفرنسية- جاء إلى بلاد مصر، ليحتلها ويقيم نظامًا استعماريًا فيها.

والأمثلة كثيرة لا يتسع المقام لسردها، فضلًا عن التفصيل فيها، ولكن لعل من المناسب أن نُذكّر بقضية انهيار النظام الاقتصادي الرأسمالي! الذي قام على مصادمة منهج الله العادل في شأن المال، فرأى أربابه صدق ما توعد الله به أكلة الربا من المحق، وفي كل يوم نسمع عن مليارات ضائعة، وشركات عالمية أفلست، ومئات من البنوك أُغلقت على مستوى العالم! حينها قال من قال: لا بد من العودة إلى المنهج الإسلامي في الاقتصاد! وصدق الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وصدق الله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

ألا ما أحوج الدول الإسلامية، والجماعات الإسلامية -في بقاع الأرض- إلى أن يتدبروا هذه القاعدة جيدًا، وأن يتأملوا في العواقب التي جناها مخالفوا التقوى في الأنظمة والحكم والسلوك.

ومن تدبر مجيء قوله تعالى -على لسان موسى وهو يخاطب قومه المضطهدين عدة قرون-: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] عرف حاجة الدول والمجتمعات لتدبر هذه الآية جيدًا، وأن وعد الله لا يتخلف لمن اتقاه دولًا كانوا أو شعوبًا، وتأمل قول مَنْ عواقب الأمور كلها إليه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

ومن أراد أن يعرف الآثار السيئة التي لقيها العالم حين بَعُد المسلمون عن دينهم، وخسارة العالم لعظيم مبادئ الإسلام؛ فليقرأ كتاب الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)؟!

أما على المستوى الفردي، فإن الحديث فيها يحتاج إلى بسط أكثر، ولكن حسبنا في مقامنا هذا أن نشير إشارة مُذكّرة بأهمية هذه القاعدة في حياتنا اليومية:

فإن آية القصص: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ جاءت بعد قصة قارون الذي لم يصبر على شهوة المال!

وفي هذا إشارة إلى حاجة العبد -رجلًا كان أو امرأة- لتدبر هذه القاعدة، خصوصًا وهو يعيش في جو من المغريات والفتن والصوارف عن دين الله ﷻ؛ لتهوّن عليه الصبرَ عن الشهوات والملذات المحرمة، فكلما دعته نفسه إلى ما يخالف التقوى، فليذكرها بحسن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة.

وكذلك الداعية إلى الله، من أحوج ما يكون إليها وهو يسير في طريق الدعوة الطويل، والمليء بالابتلاء بالخير أو بالشر، وخصوصًا إذا كان لا يجد معينًا ولا ناصرًا، بل قد يجد مناهضًا ومعاديًا!

القاعدة
الخامسة عشر

يقول شيخنا العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذكر شيئًا مما تعرض له إمام الدعاة محمد ﷺ من أذى وابتلاء:

«فكيف يطمع أحد بعد ذلك أن يسلم؟ أو يقول: متى كنت متقيًا أو مؤمنًا فلا يصيبني شيء؟! ليس الأمر كذلك بل لابد من الامتحان، ومن صبر حَمِدَ العاقبة، كما قال الله جل وعلا: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ فالعاقبة الحميدة لأهل التقوى، متى صبروا واحتسبوا وأخلصوا لله وجاهدوا أعداءه وجاهدوا هذه النفوس، فالعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

فأنت -يا عبد الله- في أشد الحاجة إلى تقوى ربك ولزومها، والاستقامة عليها، ولو جرى ما جرى من الامتحان، ولو أصابك ما أصابك من الأذى أو الاستهزاء من أعداء الله، أو من الفسقة والمجرمين فلا تبالِ، واذكر الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، واذكر أتباعهم بإحسان؛ فقد أوذوا، واستهزئ بهم، وسخر بهم، ولكنهم صبروا؛ فكانت لهم العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، فأنت يا أخي كذلك اصبر وصابر»[1].

ومفهوم هذه القاعدة القرآنية المحكمة: أن كل من لم يكن تقيًا في أحواله، أو أفعاله، فلا عاقبة له حسنة، وإن أُمهل زمانًا، أو تُرِكَ دهرًا، وهذه سنة الله في خلقه، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يستدل بهذه القاعدة القرآنية: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وبأمثالها -إبان هجوم التتار على بلاد الإسلام- وكان يقسم بالله أن التتار لن يُنصروا، بل سيخذلون وينكسرون، وكان مما قاله حينها: «واعلموا -أصلحكم الله- أن النصرة للمؤمنين، والعاقبة للمتقين، وأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وهؤلاء

---

(١) مجموع فتاوى ابن باز: (٢/ ٢٨٩).

القوم مقهورون مقموعون، والله سبحانه وتعالى ناصرنا عليهم، ومنتقم لنا منهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ فأبشروا بنصر الله تعالى وبحسن عاقبته، **وهذا أمر قد تيقناه وتحققناه والحمد لله رب العالمين**»[1].

اللهم ارزقنا تقواك، واجعلنا من عبادك المخلصين.

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٢٥)، و (٢٨ / ٤١٩).

القاعدة السادسة عشر

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة، يحتاجها الإنسان في مقام التمييز بين الأقوال والأفعال، والسلوكيات والمقالات.

والخبيث: ما يُكره بسبب رداءته وخساسته، سواء كان شيئًا محسوسًا، أو شيئًا معنويًا، فالخبيث إذًا يتناول: كل قول باطلٍ ورديء في الاعتقاد، والكذب في المقال، والقبيح من الفعال، فكل خبيث: لا يحبه الله ولا يرضاه، بل مآله إلى جهنم، كما قال ﷻ: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وإذا تبين معنى الخبيث ههنا؛ فإن الطيب بعكسه فيدخل فيه الواجب والمستحب والمباح -من الأقوال والأفعال والصحيح من المعتقدات- فدخل في هذه القاعدة كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الواجبات والمستحبات والمباحات.

فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال[1].

---

(١) ينظر: مفردات الراغب (٢٧٢)، وتفسير ابن جزي والسعدي لهذه الآية.

وهذه القاعدة القرآنية هي صدر الآية الكريمة: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، والتي سيقت في معرض الحديث عن أنواع من المطاعم والمشارب والصيد، وتفصيل الحرام والحلال فيها.

ولا ريب أن الغرض من الآية ليس مجرد الإخبار بأن الخبيث لا يستوي هو والطيب، فذلك أمرٌ مركوز في الفِطَر، بل الغرض: الحث والترغيب في تتبع كل طيب من القول والعمل والاعتقاد والمكسب، والتنفير من كل خبيث من القول والعمل والاعتقاد والمكسب.

ولما كان في بعض النفوس ميلٌ إلى بعض الأقوال أو الأفعال أو المكاسب الخبيثة، وكان كثيرٌ من الناس يؤثر العاجل على الآجل، والفاني على الباقي؛ جاء التحذير من الخبيث بأسلوب عجيب يقطع الطريق على من قد يحتج بكثرة من يتناول هذا الخبيث، فقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ وذلك أن في بعض الخبائث شيءٌ من اللذة الحسية أو المعنوية، كالحصول على مالٍ كثير لكن من طريق حرام، أو الوصول إلى اللذة الجسدية عن طريق الزنا، أو الخمر أو غيرهما من الملذات المحرمة، فهذه قد تغري الإنسان، وتعجبه، إلا أنه مع كثرة مقداره، ولذاذة متناوله، وقرب وجدانه، سبب للحرمان من السعادات الباقية الأبدية السرمدية التي إليها الإشارة بقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦]، وإذا كان الأمر كذلك فالخبيث -ولو أعجبك كثرته- يمتنع أن يكون مساويًا للطيب الذي أعظمه: معرفة الله ومحبته، وطاعته، فتلك هي -والله- الحياة الطيبة التي وعد بها ﷻ من استقام على أمره، بأن يطيب عيشه في الدنيا والبرزخ والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

﴿يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] هؤلاء هم الذين طابت أقوالهم وأفعالهم وحياتهم، فطاب مماتهم ورجوعهم إلى الله، كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢] نسأل الله الكريم المنان من فضله الواسع العظيم.

ولعظيم موقع هذه القاعدة وما دلّت عليه، فإن المتأمل للقرآن يجد عجبًا من كثرة التأكيد على العمل بما دلّت عليه هذه القاعدة! ومن ذلك:

١- التأكيد على ضرورة العناية بالمكاسب الطيبة، ولم يستثن الله أحدًا من عباده المؤمنين في الحث على هذا الأمر، بالإضافة إلى العمومات الآمرة بطيب المكسب، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] إلا أن الله تعالى خص الرسل عليهم الصلاة والسلام -الذين كانوا أطيب الناس حسًا ومعنى- بخطاب خاص في هذه المسألة بالذات، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وكلُّ هذا يؤكد ضرورة العناية بهذا الباب العظيم الذي هو طيب المكسب، ولقد كان سلفنا الصالح شديدي العناية بهذه المسألة، ولربما سافر أحدهم مئات الأميال، وتغرب عن وطنه، كل ذلك بحثًا عن لقمة طيبة حلال، حتى قال سفيان الثوري: إن طلب الحلال هو عمل الأبطال.

ولقد كان من أعظم أسباب العناية بطيب المكسب عند أسلافنا أمور، من أهمها:

أ- أن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا كما قال النبي ﷺ.

ب- ومنها: أن هذه المكاسب مما تنبت عليها الأجساد.

ولهذا فإن مما يُوصَى به: كثرة الصدقة كلما كثر المال، أو قويت فيه الشبهة؛ كما أوصى بذلك النبي ﷺ من يتعاطون التجارة، حيث يقول ﷺ - فيما رواه أهل السنن -: من حديث قيس بن أبي غرزة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ -ونحن نسمى السماسرة- فقال: «**يا معشر التُّجَّار! إن الشيطان والإثم يحضران البيع فشوبوا بيعكم بالصدقة**» قال الترمذي: حديث حسن صحيح[1].

وإذا كان هذا شأن المكسب الطيب - فعلى الناصح لنفسه أن يجتهد في تحقيقه، والحذر من أي شيء يكدره، خصوصًا وقد اتسعت على الناس اليوم أنواع من المكاسب المحرمة فضلًا عن المختلطة والمشتبهة، كبعض الشركات الموجودة في أسواق الأسهم المحلية والعالمية.

٢- ومن هدايات هذه القاعدة القرآنية العظيمة: أنه لا يصح - أبدًا - أن نجعل الكثرة مقياسًا لطيب شيءٍ ما، وصحته وسلامته من المحاذير الشرعية، وهذا أمرٌ يصدق على الأقوال والأفعال والمعتقدات، بل يجب أن نحكم على الأشياء بكيفيتها وصفتها وبمدى موافقتها للشرع المطهر.

تأمل -مثلًا- في قلة أتباع الرسل وكثرة أعدائهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وهذا مما يؤكد على الداعية أهمية العناية بالمنهج وسلامته، وأن لا يكون ذلك على حساب كثرة الأتباع! وهذا موضعٌ لا يفقهه إلا من وفقه الله تعالى، ولا يصبر عليه إلا من أعانه الله وسدده؛ لأن في الكثرة فتنة، وفي القلة ابتلاء.

وإليك مثالًا ثالثًا يجلي لك معنى هذه القاعدة بوضوح، وهو أن تتأمل في كثرة المقالات والعقائد الباطلة وكيف أن المعتقد الحق هو شيء واحدٌ فقط، قال ﷻ:

---

(١) الترمذي ح (١٢٠٨) وقال: حسن صحيح.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ووالله ما في الخبيث من لذة إلا وفي الطيّب مثلها وأحسن، مع أمْنٍ من سوء العاقبة في الدنيا والآخرة، والعاقل حين يتحرر من هواه، ويمتلئ قلبه من التقوى ومراقبة الله تعالى؛ فإنه لا يختار إلا الطيب، بل إن نفسه ستعاف الخبيث، ولو كان ذلك على حساب فوات لذات، ولحوق مشقات؛ فينتهي الأمر إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، مسليًّا نفسه بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

اللهم جعلنا من الذين طابت أقوالهم وأفعالهم، فطاب منقلبهم ومآلهم.

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة السابعة عشر

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة في أبواب المعاملات، والعلاقات بين الناس.

وهذه القاعدة القرآنية جاءت في سياق قصة موسى مع صاحب مدين -في سورة القصص-، والذي كان عاجزًا عن طلب الماء فخرجت ابنتاه للسقيا، بيد أنهما تأخرتا انتظارًا لصدور الناس عن البئر، إلا أن مروءة موسى وشهامته حملته على أن يبادر -من غير أن ينتظر سؤالهما- بقضاء حاجتهما، والسقيِ لهما، فأعجبَ هذا الفعلُ الفتاتين، فذكرتاه لوالدهما المقعد عن العمل، فأرسل في طلبه، فلما جاء وحدثه بخبره، قالت له إحداهما -وهي العالمة بعجز والدها عن القيام بمهام الرجال-: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تعليل لطلبها، **فالقوة**: في العمل، **والأمانة**: في أدائه على الوجه المطلوب.

وهذا التنصيص على هذين الوصفين هو من وفور عقل هذه المرأة التي رأت اكتمال هاتين الصفتين في موسى، فإنهما من المطالب التي يتفق عليها عقلاء البشر في

جميع الأمم والشرائع.

وقد أخذ العلماء -رحمهم الله- هذه الآية مأخذ القاعدة فيمن يلي أمرًا من الأمور، وأن الأحق به هو من توفرت فيه هاتان الصفتان، وكلما كانت المهمة والمسؤولية أعظم، كان التشدد في تحقق هاتين الصفتين أكثر وأكبر.

إن من تأمل القرآن الكريم وجد تلازمًا ظاهرًا وبيّنًا بين هاتين الصفتين (القوة والأمانة) في عدة مواضع، ومن ذلك:

* ما وصف الله به مبلِّغ الوحي والرسالات إلى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: جبريل، في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢١] فانظر كم وصفًا وصف الله به هذا الرسول الملكي الكريم! ومن ذلك وصفه بالقوة والأمانة، وهما من أعظم عناصر النجاح والكمال فيمن يؤدي عملًا من الأعمال.

* **الموضع الثاني هو** قول يوسف -عليه الصلاة والسلام- للملِك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

«أي: حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصًا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه»[1].

ولا يخفى أن إدارة أموال مجموعة من الأيتام تحتاج إلى هاتين الصفتين، فكيف بإدارة أموال تتعلق بجماعة؟! أم كيف بإدارة أموال دولة بأكملها؟! ولهذا أبرزَ يوسفُ

---

(١) تفسير السعدي: (٤٠٠).

-عليه الصلاة والسلام- هاتين الصفتين، ومدح نفسه بهما، لا لذات المدح، بل لأن الوضع الاقتصادي في مصر آنذاك يقتضي مبادرة في ضبط إدارة أموالها، خصوصًا وقد كانت مقبلة -بحسب الرؤيا- على سنين عجاف مجدبات، تحتاج إلى حكمة وتعقل في الصرف.

* **أما الموضع الثالث فهو:**

ما جاء في قصة سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وهو يعرض على من كان عنده أمرَ إحضار عرش بلقيس ملكة سبأ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٨- ٣٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقًا على هذه المواضع الثلاثة بكلام نفيس، أنقل منه ما يناسب المقام:

«وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب؛ فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾... **والقوة في كل ولاية بحسبها: فالقوة في إمارة الحرب** ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها، فإن الحرب خَدْعَةٌ، وإلى القدرة على أنواع القتال: من رمي وطعن وضرب وركوب وكر وفر...**والقوة في الحكم بين الناس** ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام.

والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلًا، وتركِ خشية الناس، وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل من حَكم على الناس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]» إلى أن قال:

«اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: اللهم أشكوا إليك جلد الفاجر وعجز الثقة، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوةً، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضررًا فيها، فتقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينًا، كما سئل الإمام أحمد: عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف مع أيهما يُغزى؟ فقال: أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القوي الفاجر...».

ثم قال: مبينًا منهج النبي ﷺ ومنهج في هذا الباب:

«ولذلك كان النبي ﷺ يستعمل الرجل لمصلحةٍ مع أنه قد كان يكون مع الأمير من هو أفضل منه في العلم والإيمان».

ثم لخص كلامه الطويل في تعليقه على هذه الآية بقوله: «**والمهم -في هذا الباب-** معرفةُ الأصلح، وذلك إنما يتم بمعرفة مقصود الولاية، ومعرفة طريق المقصود، فإذا عُرِفَتْ المقاصد والوسائل تَمَّ الأمر»[1].

وكان: قد قال كلمة تكتب بماء الذهب، وهي:

«أن المؤدي للأمانة -مع مخالفة هواه- يثبته الله، فيحفظه في أهله وماله بعده، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده، فيذل أهله، ويذهب ماله، وفي ذلك الحكاية المشهورة، أن بعض خلفاء بني العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك؟ فقال: أدركت عمر بن عبد العزيز، فقيل له: يا أمير المؤمنين أقفرتْ أفواه بنيك من هذا المال،

---

(١) ينظر: السياسة الشرعية - مع تعليق شيخنا العثيمين عليها ص (٤٢-٦٣) باختصار وتصرف.

وتركتهم فقراء لا شيء لهم - وكان في مرض موته- فقال: أدخلوهم علي، فأدخلوهم، وهم بضعةَ عشر ذكرًا، ليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: يا بَنَيّ! والله ما منعتكم حقًا هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني!

قال هذا العالم -الذي يحكي هذه القصة-: فلقد رأيت بعض بنيه، حمل على مائة فرس في سبيل الله، يعني أعطاها لمن يغزو عليها.

قلت (والكلام لابن تيمية): هذا وقد كان خليفة المسلمين، من أقصى المشرق بلاد الترك، إلى أقصى المغرب، بلاد الأندلس وغيرها، ومن جزيرة قبرص، وثغور الشام والعواصم، إلى أقصى اليمن، وإنما أخذ كل واحدٍ من أولاده، من تركته شيئًا يسيرًا، يقال: أقل من عشرين درهمًا -! **قال - أي هذا العالم الذي يحدث بهذه القصة ويعظ ذلك الخليفة العباسي**-: وحضرتُ بعض الخلفاء، وقد اقتسم تركتَه بنوه، فأخذ كلُّ واحدٍ منهم ستّمائة ألف دينار، ولقد رأيتُ بعضهم، يتكفف الناس!!»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وفي هذا الباب من الحكايات والوقائع المشاهدة في الزمان والمسموعة عما قبله، ما فيه عبرة لكل ذي لب!» ا.هـ[2].

ومن أراد أن يتوسع في فهم معاني هذه القاعدة القرآنية العظيمة، فليراجع ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية».

اللهم ارزقنا فهمَ كتابك والعمل به، واجعلنا ممن يقوم بحق ما ولاه الله عليه.

(١) يتكفف الناس: أي يسألهم بكفه.

(٢) ينظر: السياسة الشرعية - مع تعليق شيخنا العثيمين عليها - ص: (٢٩-٣١)، وسيرة عمر ابن عبد العزيز: (٣٣٨).

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة الثامنة عشر

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾

تأتي هذه القاعدة القرآنية المحكمة لتبين سنة من سنن الله تعالى في تعامل الخلق مع بعضهم، وقد جاءت هذه القاعدة القرآنية في سياق آيات في سورة فاطر، يحسن ذكرها ليتضح معناها، يقول تعالى عن طائفة من المعاندين[1]: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢ - ٤٣].

ومعنى هذه القاعدة باختصار:

أن هؤلاء الكفار المعاندين أقسموا «بالله أشد الأَيْمان: لئن جاءهم رسول من عند الله يخوِّفهم عقاب الله ليكونُنَّ أكثر استقامة واتباعًا للحق من اليهود والنصارى وغيرهم، فلما جاءهم محمد ﷺ ما زادهم ذلك إلا بُعْدًا عن الحق ونفورًا منه، **وليس إقسامهم** لقَصْد حسن وطلبًا للحق، وإنما هو استكبارٌ في الأرض على الخلق، يريدون به المكر السيِّئ، والخداع والباطل، **ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله**، فهل ينتظر

---

(١) ينظر في بيان صفاتهم: التحرير والتنوير (١٢/ ٧٣).

المستكبرون الماكرون إلا العذاب الذي نزل بأمثالهم الذين سبقوهم، فلن تجد لطريقة الله تبديلًا ولا تحويلًا فلا يستطيع أحد أن يُبَدِّل، ولا أن يُحَوِّل العذاب عن نفسه أو غيره»[1].

وهذا المعنى الذي قررته هذه القاعدة، جاء معناه في آيات أخر من كتاب الله تعالى، كقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ بل قد قرر الله تعالى أن هذا الأسلوب -وهو المكر- إنما هو منهجٌ من مناهج أعداء الرسل مع الأنبياء والرسل، فقال ﷻ: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢]، وقال ﷻ: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وأما الأمثلة الفردية التي تبين معاني هذه القاعدة، فكثيرة في كتاب الله تعالى، لكن حسبنا أن نشير إلى بعضها، فمن ذلك:

١- ما قصه الله تعالى عن مكر إخوة يوسف بأخيهم، فماذا كانت العاقبة؟ يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] صحيح أن إخوته تابوا، لكن بعد أن آذوا أباهم وأخاهم بأنواع من الأذى، فعاد مكرهم على غير مرادهم، وفاز بالعاقبة الحسنة، والمآل الحميد من صبر وعفا وحلَم.

٢- قوله الله تعالى عمن أرادوا كيدًا بنبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]!

٣- ولما تحايل المشركون بأنواع الحيل لأذية نبينا ﷺ قال الله عنهم: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ

---

(١) التفسير الميسر (تفسير المجمع).

﴿ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فكانت العاقبة له عليه الصلاة والسلام.

وأما في السُنة، وفي التاريخ فكثيرٌ جدًّا، ومن قرأ التاريخ قراءة المتدبر المتأمل؛ وجد من ذلك عِبرًا، وأدرك معنى هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

ولهذا لما كان المكر برسول الله ﷺ كثيرًا، والكيدُ له عظيمًا؛ سلاه الله بآية عظيمة، تبعث على الثقة والطمأنينة، والأمل والراحة، ليس له ﷺ وحده، بل لكل داعية يسير على نهجه ممن قد يشعر بكيد الكائدين ومكر الماكرين، فقال ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧ - ١٢٨].

«فالله حافظه من المكر والكيد، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص في دعوته، لا يبتغي من ورائها شيئًا لنفسه، ولقد يقع به الأذى لامتحان صبره، ويبطئ عليه النصر لابتلاء ثقته بربه، ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون»[1]، والمهم أن يحفظ سياج التقوى، ولا يقطع إحسانه إلى الخلق، ثم ليبشر بعد ذلك ببطلان كيد الماكرين.

ولعلك تلاحظ في هذه القاعدة القرآنية: أن المكر أضيف إلى السوء ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وهذا يوضح أن المكر من حيث هو لا يُذم ولا يُمدح إلا بالنظر في عاقبته، فإن كان المكرُ لغاية صحيحة فهو ممدوح، وإلا فلا.

ومن بلاغة البيان القرآني: التعبير بالحَيق مع كلمة المكر، في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ﴾ فالعرب تقول: حاق به المكروه يحيق به حيقًا، إذا نزل به وأحاط به، **ولا**

---

(١) في ظلال القرآن: (٤/ ٤٩٩).

يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة، فلا تقول: حاق به الخير، بمعنى: أحاط به[1].

ولعلك تتأمل في الحكمة من اتباع هذه القاعدة القرآنية بقوله ﷻ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ليتبين أن هذه القاعدة القرآنية مطردة، وفي ذلك من التحذير من مكر السوء ما فيه.

وإذا تقرر أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فإنه يدخل في هذه الآية كل مكرٍ سيء، يقول العلامة ابن عاشور مبينًا علة اطراد وثبات هذه القاعدة ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾: «لأن أمثال هذه المعاملات الضارة تؤول إلى ارتفاع ثقة الناس بعضهم ببعض، والله بنى نظام هذا العالم على تعاون الناس بعضهم مع بعض؛ لأن الإنسان مدني بالطبع، فإذا لم يأمن أفراد الإنسان بعضهم بعضًا تنكر بعضهم لبعض، وتبادروا الإضرار والإهلاك؛ ليفوز كل واحد بكيد الآخر قبل أن يقع فيه؛ فيفضي ذلك إلى فساد كبير في العالم، والله لا يحب الفساد، ولا ضر عبيده إلا حيث تأذن شرائعه بشيء.

وكم في هذا العالم من نواميس مغفول عنها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾، وفي كتاب ابن المبارك في «الزهد» بسنده عن الزهري بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمكر، ولا تُعِن ماكرًا؛ فإن الله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾».

ومن كلام العرب: من حفر لأخيه جبًا، وقع فيه منكبًا!

فكم انهالت من خلال هذه الآية من آداب عمرانية، ومعجزات قرآنية، ومعجزات نبوية خفية»[2].

وإذا أردنا أن ننظر في آثار هذه القاعدة القرآنية على أهلها في الدنيا والآخرة،

---

(١) ينظر: أضواء البيان (٤/ ١٥٣).

(٢) التحرير والتنوير: (٢٢/ ٣٣٥-٣٣٦).

فلنتأمل هذه القصص التي ذكرها ربنا في كتابه عن أهل المكر بأوليائه والدعاة إلى سبيله، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره عن جملة من الأنبياء، نجد أمثلة أخرى لأتباعهم، نجاهم الله فيها من مكر الأعداء، ومن ذلك:

- فرعون! كم كاد لبني إسرائيل لّما آمنوا به! ومن جملتهم ذلك الرجل الذي عرف بـ «مؤمن آل فرعون» الذي قصّ الله خبره في سورة غافر! تأمل قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥ - ٤٦] فنجى الله المؤمن، وأما فرعون وجنوده فهم الآن - بل منذ ماتوا - وهم يعذبون، وإلى يوم القيامة.

- وهذا الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ -صاحب «الصحيح»-، كان كثير من أصحابه يقولون له: إن بعض الناس يقع فيك! فيقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء ٧٦]، ويتلو أيضًا: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، فقال له أحد أصحابه: كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك؟!

فقال: «قال النبي ﷺ: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»[(١)]، وقال ﷺ: «من دعا على ظالمه، فقد انتصر»[(٢)]»[(٣)].

- **وقد ذكر ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ أمثلةً تطبيقية وعملية من واقع الناس لهذه القاعدة في سياق حديثه عن المتحايلين على الأحكام الشرعية، كالمتحايلين على أكل الربا ببعض المعاملات، أو يحتالون على بعض الأنكحة، وأمثال هؤلاء، فقال:

---

(١) البخاري ح (٣٥٨١)، ومسلم ح (١٠٦١).

(٢) الترمذي (٥/ ٥٥٤)، ولفظه: «من دعا على من ظلمه...»، قال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٣) سير أعلام النبلاء: (٢٣/ ٤٥٥).

«فالمحتال بالباطل مُعَاملٌ بنقيض قصده شرعًا وقَدَرًا، **وقد شاهد الناس عيانا أنه من عاش بالمكر مات بالفقر**؛ ولهذا عاقب الله ﷻ من احتال على إسقاط نصيب المساكين وقت الجداد بحرمانهم الثمرة كلها[1]، وعاقب من احتال على الصيد المحرم بأن مسخهم قردة وخنازير، وعاقب من احتال على أكل أموال الناس بالربا بأن يمحق ماله، كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ فلا بد أن يُمحق مال المرابي ولو بلغ ما بلغ، وأصل هذا: أن الله سبحانه جعل عقوبات أصحاب الجرائم بضد ما قصدوا له بتلك الجرائم،... وهذا بابٌ واسعٌ جدًا عظيمُ النفع، فمن تدبره يجده متضمنًا لمعاقبة الرب سبحانه من خرج عن طاعته؛ بأن يعكس عليه مقصوده شرعًا وقدرًا، دنيًا وأخرى، وقد اطردت سنته الكونية سبحانه في عباده بأن: **من مكر بالباطل مُكر به، ومن احتال احتيل عليه، ومن خادع غيره خُدِعَ**، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، فلا تجد ماكرًا إلا وهو ممكورٌ به، ولا مخادعًا إلا وهو مخدوع ولا محتالا إلا وهو محتال عليه»[2].

---

(١) يشير بذلك إلى قصة أصحاب الجنة في سورة القلم.

(٢) إغاثة اللهفان: (١/ ٣٥٨).

القاعدة التاسعة عشر

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾

هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب التعامل بين الخلق، الذين لا تخلو حياة كثير منهم من بغي وعدوان، سواء على النفس أو على ما دونها.

وهذه **القاعدة القرآنية** العظيمة جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى -مبينًا هذه القاعدة العظيمة في باب الجنايات-: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ولنا مع هذه **القاعدة القرآنية** المحكمة وقفات:

الوقفة الأولى:

إن من تأمل في واقع بلاد الدنيا عمومًا -مسلمها وكافرها- فسيجد قلة القتل في البلاد التي يُقتلُ فيها القاتل -كما أشار إلى ذلك العلامة الشنقيطي، وعلل ذلك بقوله-: «لأن القصاص رادع عن جريمة القتل؛ كما ذكره الله في الآية المذكورة آنفًا، وما يزعمه أعداء الإسلام من أن القصاص غير مطابق للحكمة؛ لأن فيه إقلال عدد

المجتمع بقتل إنسان ثان بعد أن مات الأول، وأنه ينبغي أن يعاقب بغير القتل فيحبس، وقد يولد له في الحبس فيزيد المجتمع **كله كلامٌ ساقط**، عارٍ من الحكمة؛ لأن الحبس لا يردع الناس عن القتل، فإذا لم تكن العقوبة رادعةً فإن السفهاء يكثر منهم القتل، فيتضاعف نقص المجتمع بكثرة القتل»[1].

الوقفة الثانية:

مع قوله ﷻ -في هذه **القاعدة القرآنية** المحكمة- ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾: ذلك أن «الحياة أعز شيء على الإنسان في الجبلة، فلا تعادل عقوبة القتل في الردع والانزجار، ومن حكمة ذلك: تطمين أولياء القتلى بأن القضاء ينتقم لهم ممن اعتدى على قتيلهم، قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء:٣٣] أي: لئلا يتصدى أولياء القتيل للانتقام من قاتل مولاهم بأنفسهم؛ لأن ذلك يفضي إلى صورة الحرب بين رهطين فيكثر فيه إتلاف الأنفس»[2].

الوقفة الثالثة:

مع تنكير كلمة (حياة) في هذه **القاعدة القرآنية**: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾:

فهذا التنكير «للتعظيم، أي: **في القصاص حياة لنفوسكم**؛ فإن فيه ارتداعُ الناس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنه يسلم من الموت لأقدم على القتل مستخفًا بالعقوبات كما قال سعد بن ناشب لما أصاب دمًا وهربَ فعاقبه أمير البصرة بهدم داره بها:

---

(١) أضواء البيان: (٣/ ٣٢).

(٢) التحرير والتنوير: (٢/ ١٩٢).

سأغسلُ عني العار بالسيف جالبًا ... عليَّ قضاء الله ما كان جالبا
وأذهل عن داري، وأجعل هدمها ... لعِرضيَ من باقي المذمة حاجبا
ويصغر في عيني تلادي إذا انثنت ... يميني بإدراك الذي كنتُ طالبا

ولو ترك الأمر للأخذ بالثأر -كما كان عليه في الجاهلية- لأفرطوا في القتل وتسلسل الأمر كما تقدم، فكان في مشروعية القصاص حياة عظيمة من الجانبين»[1].

الوقفة الرابعة:

هي مع ختم هذه القاعدة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ففي ذلك «تنبيه على التأمل في حكمة القصاص؛ ففي توجيه النداء إلى أصحاب العقول إشارة إلى أن حكمة القصاص لا يدركها إلا أهل النظر الصحيح؛ إذ هو في بادئ الرأي كأنه عقوبة بمثل الجناية؛ لأن في القصاص رزية ثانية لكنه عند التأمل هو حياة لا رزية؛ للوجهين المتقدمين.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إكمالا للعلة، أي لأجل أن تتقوا، فلا تتجاوزوا في أخذ الثأر حد العدل والإنصاف»[2].

الوقفة الخامسة:

أن هذه القاعدة العظيمة فاقت ما كان سائرًا مسرى المثل عند بعض المتأخرين[3]، وهو قولهم: (القتل أنفى للقتل).

وقد اشتغل جمع من البلاغيّين في تحليل هذه **القاعدة القرآنية**: ﴿وَلَكُمْ فِي

---

(١) التحرير والتنوير: (٢/ ٢٠٠).
(٢) التحرير والتنوير: (٢/ ٢٠٠) بتصرف واختصار.
(٣) ينظر في بيان كون هذا المثل منقولًا ومترجمًا وليس عربيًا أصالة: وحي القلم (٣/ ٤٠٧ - ٤١٠).

﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ للبحث عن مواطن إيجازها المتقَن، ومقارنتِها بالمثل المشهور الذي تكرر وتردد على ألسنة كثير من الأدباء، والكُتَّاب والصحفيين، ذلكم هو قول العرب: (القتلُ أنفى للقتل) فزعم بعضهم أنه أفصح من هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، وقبل بيان المقارنة يحسن إيراد كلمة محررة ومتينة لأبي بكرٍ الباقلاني؛ حيث يقول كلامًا، هو كالقاعدة بين حال من يريد أن يقارن بين كلام الله وكلام خلقه، يقول: «فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مُرْمَدٍ[1] فصاحة القرآن، وموقع بلاغته وعجيب براعته **فما عليك منه!** إنما يخبر عن نفسه، ويدل على عجزه، ويبين عن جهله، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله»![2].

وبالمقارنة بين ما نحن بصدده من هذه **القاعدة القرآنية**: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ وبين ذلك المثل: «الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتل» ظهر ما يلي:

(١) إنّ حروف **القاعدة القرآنية**: ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ أقل عددًا من عبارة العرب: «الْقَتْلُ أَنْفَى للقتل».

(٢) **القاعدة القرآنية** ذكرت «القِصَاصَ» ولم تقل القتل، فشملت كلَّ ما تُقَابَلُ به الجناية على الأنفس فما دون الأنفس من عقوبة مُمَاثلة، وحدّدَتِ الأمر بأنْ يكون عقوبة وجزاء لخطأ سابق، لا مجرد عدوان، وهذا عين العدل.

أمّا عبارة العرب فقد ذكرت القتل فقط، ولم تقيّده بأن يكون عقوبة، ولم تُشِرْ إلى مبدأ العدل، فهي قاصرة وناقصة.

(٣) **القاعدة القرآنية** ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ نصَّتْ على ثبوت الحياة بتقرير حكم

---

(١) أي من في عينيه رمدٌ، إشارة إلى عماه عن إبصار الحقيقة.

(٢) نقلها الرافعي في: وحي القلم (٣/ ٣٩٩)، وينظر: أعلام النبوة للماوردي (١٠٠).

القصاص، أما المثل العربي فذكر نَفْي القتل، وهو لا يَدُلُّ على المعنى الذي يَدُلُّ عليه لفظ «حياة».

(٤) **القاعدة القرآنية** خالية من عيب التكرار، بخلاف المثل العربي الذي تكررت فيه كلمة القتل مرتين في جملة قصيرة.

(٥) **القاعدة القرآنية** صريحة في دلالتها على معانيها، مستغنية بكلماتها عن تقدير محذوفات، بخلاف عبارة «العرب» فهي تحتاج إلى عدّة تقديراتٍ حتى يَستقيم معناها، إذْ لا بُدَّ فيها من ثلاثة تقديرات، وهي كما يلي: «القتلُ» قصَاصًا «أنْفَى» من تركه «لِلقَتْلِ» عمْدًا وعدوانًا.

(٦) في **القاعدة القرآنية** سَلاَسة؛ لاشتمالها على حروف متلائمة سهلة التتابع في النطق، أمّا العبارة «العربية» ففيها تكرير حرف القاف المتحرِّك بين ساكنين، وفي هذا ثقل على الناطق[1].

وبعد: فإن لهذه المقارنة البلاغية الموجزة قصةً أختم بها حديثي في هذه القاعدة القرآنية، وهي أن العلامة محمود شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ قرأ مقالةً لأحد الصحفيين يقرر فيها أن عبارة «القتل أنفى للقتل» أبلغ من هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، فضاق صدر الشيخ محمود شاكر جدًّا، ووصف هذه الكلمة بأنها كافرة، فكتب -وقتها- إلى الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يستحثه على الجواب عن هذه الدعوى المزيفة، يقول الشيخ محمود شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «غلى الدم في رأسي حين رأيت الكاتب يلج في تفضيل قول العرب: «القتل أنفى للقتل» على قول الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فذكرت

---

(١) ينظر في بيان أوجه إعجاز هذه الآية الكريمة: وحي القلم (٣/ ٤٠٢ – ٤٠٩) للرافعي، والبلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها (٤٩٢) للميداني.

هذه الآية القائلة: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]... ففي عنقك أمانة المسلمين جميعًا لتكتبن في الرد على هذه الكلمة الكافرة؛ لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها؛ فإن هذه زندقة إن تركت تأخذ مأخذها في الناس؛ جعلتْ البر فاجرًا، وزادتْ الفاجر فجورًا، هم ذئاب الزندقة الأدبية التي جعلت همها أن تلغ ولوغها في البيان القرآني...» إلخ كلامه.

فلما بلغ هذا الكلامُ الأديبَ الرافعي غضب غضبة مُضَرية، وانبرى للرد على هذه الكلمة الآثمة في بضع صفحات من كتابه الرائع «وحي القلم»، لخصنا شيئًا منها فيما ذكرته آنفًا، فجزاه الله خيرًا، وغفر له، وإلى هنا ينتهي ما أردتُ بيانه حول هذه القاعدة القرآنية الكريمة: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾.

القاعدة العشرون

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾

هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب العدل والجزاء، ولتدبرها أثرٌ في فهم المؤمن لما يراه أو يقرأه في كتب التاريخ، أو الواقع من تقلبات الزمن والدهر بأهله، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، إنها القاعدة القرآنية التي دل عليها قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

ولعل إيراد الآية الكاملة التي ذكرت فيها هذه القاعدة مما يجلي لنا أبرز صور الإهانة التي تنزل الإنسان من عليائه، يقول ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

فهل أدركتَ معي -وأنت تتلو هذه الآية الكريمة- أن أعلى وأبهى وأجلى صور كرامة العبد أن يوحّد ربه، وأن يفرده بالعبادة، وأن يترجم ذلك بالسجود لربه، والتذللِ بين يدي مولاه، وخالقِه ورازقه، ومَنْ أمرُ سعادتِه ونجاته وفلاحِه بيده ﷻ، يفعلُ ذلك اعترافًا بحق الله، ورجاءً لفضله، وخوفًا من عقابه؟!

وهل أدركتَ أيضًا أن غاية الهوان والذلّ، والسفول والضعة أن يستنكف العبد

عن السجود لربه، أو يشرك مع خالقه إلهًا آخر؟! وتكون الجبال الصم، والشجر، والدواب البُهمُ، خيرًا منه حين سجدتْ لخالقها ومعبودها الحق؟!

إذا تبيّن هذا فإن هذه القاعدة القرآنية الكريمة: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ جاءت في سياق بيان من هم الذين يستحقون العذاب؟ إنهم الذين أذلوا أنفسهم بالإشراك بربهم، فأذلهم الله بالعذاب، كما قال ﷻ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ فلا يجدون حينها من يكرمهم بالنصر، أو بالشفاعة!

وتأمل كيف جاء التعبير عن هذا العذاب بقوله: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ ولم يأت بـ(ومن يعذب الله) وذلك -والله أعلم- «لأن الإهانة إذلالٌ وتحقيرٌ وخزيٌ، وذلك قدرٌ زائدٌ على ألم العذاب، فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان»[1].

ثم تأمل كيف جاء التعبير عن ضد ذلك بقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾؛ فإن «الكرم: لفظ جامع للمحاسن والمحامد، لا يراد به مجرد الإعطاء، بل الإعطاء من تمام معناه؛ فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن، والكرم كثرة الخير ويسرته،... والشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]، قال ابن قتيبة: من كل جنس حسن، والقرآن قد دل على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه، وفيهم من يهينه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨]»[2].

وإذا كان الشرك بالله هو أعظم صورةٍ يذل بها العبد نفسه، ويدسها في دركات الهوان، فإن ثمةَ صورًا أخرى -وإن كانت دون الشرك- إلا أن أثرها في هوان العبد

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٣٦٧).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٦/ ٢٩٥).

وذله ظاهر بيّن: إنه ذل المعصية، وهوان العبد بسببها.

يقول ابن القيم موضحًا شيئًا من معاني هذه القاعدة القرآنية المحكمة، وهو يتحدث عن شيء من شؤم المعاصي، وآثارها السيئة:

«ومنها: أن المعصية سببٌ لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه، قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم!

وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾! وإنْ عَظّمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم، أو خوفًا من شرهم، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه...» إلى أن قال -وهو يتحدث عن بعض عقوبات المعاصي-:

«أن يرفع الله ﷻ مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفون به، كما هان عليه أمر الله، واستخف به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس، وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته يعظم الناس حرماته! **وكيف ينتهك** عبدٌ حرمات الله ويطمع أن لا ينهك الناس حرماته؟! أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس؟! **أم كيف** يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟!

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابها بما كسبوا، وغطي على قلوبهم، وطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره.

ولهذا قال تعالى -في آية سجود المخلوقات له-: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ فإنهم لما هان عليهم السجود له، واستخفوا به ولم يفعلوه؛ أهانهم فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم، ومن ذا يكرم من أهانه الله أو يهن من أكرم...ومن عقوباتها: أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار،

فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والمتقي والمطيع... ونحوها، **وتكسوه اسم** الفاجر والعاصي والمخالف والمسيء...، وأمثالها.

فهذه أسماء الفسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان التي توجب غضب الديان، ودخول النيران، وعيش الخزي والهوان، وتلك أسماء توجب رضى الرحمان، ودخول الجنان، وتوجب شرف المتسمي بها على سائر أنواع الإنسان، فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل ناهٍ عنها، ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها؛ لكان في العقل أمرٌ بها ولكن لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع، ولا مقرب لمن باعد، ولا مبعد لمن قرب، **ومن يهن الله فماله من مكرم**، إن الله يفعل ما يشاء»[1].

وفي كلمة ابن القيم الآنفة: «**ومن ذا يُكرم من أهانه الله، أو يُهِنْ من أكرم**» إشارة إلى معنى يفهم من هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ وهو: أن من أكرمه ربه بطاعته، والانقيادِ لشرعه ظاهرًا وباطنًا؛ فهو الأعز الأكرم، وإن خاله المنافقون أو الكفار على خلاف ذلك، كما قال من طمس الله على بصائرهم من المنافقين وأشباههم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] إي والله.. لا يعلمون من هم أهل العزة حقًا!

ألم يقل الله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؟!

وكيف يشعر المؤمن بالهوان وسنده أعلى؟! ومنهجه أعلى؟! ودوره أعلى؟ وقدوته ﷺ أعلى وأسمى؟!

---

(١) الجواب الكافي: (٣٨ – ٥٢) باختصار.

فهل يعي ويدرك أهل الإيمان أنهم الأعزة حقًا؛ متى ما قاموا بما أوجب الله عليهم؟

وأختم كلامي -عن هذه القاعدة القرآنية المحكمة- بكلمة رائعة لشيخ الإسلام ابن تيمية: حيث يقول:

«الكرامة في لزوم الاستقامة، واللهُ تعالى لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[1].

أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم منهم، وأن يكرمنا وإياكم بطاعته، ولا يذلنا ويهيننا بمعصيته.

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (١٢).